سبل الإقناع في خطاب الأنبياء

أ.د. رحيم خريبط عطية

مركز دراسات الكوفة/ جامعة الكوفة

المقدمة:

إنّ دراسة موضوع يتعلّق بالنبوّات لجديرٌ بإيلائه أهميّة قصوى قي الدقّة والعناية بما صدر عنهم (ع) ؛ لأنّ حياة الإنسان متعلّقة بالعبادة ، فهي الفلسفة من وراء الخلق أصلاً . ومنذ آدم لمْ يترك الله سدىً ، بل بعث الرسل تترا لينقلوا الناس من الظلمات إلى النور ، وكانوا صفوة الخلق اختارهم الله تبارك وتعالى وحفّهم بعنايته مؤيّدين بالملك الذي اختصّ بنقل الوحي الإلهي إلى الناس .

وبُعث نبيّ إلى كلّ قوم وهو منهم يتكلّم بلسانهم حتّى يتمكّن من التواصل معهم من دون واسطة . وقد خصّ الحقّ تبارك وتعالى النبيّ محمّداً بأنْ بعثه إلى الجنّ والناس كافّة . وهو حجّة على العالمين يوم الدين . وقد كانت النبوّات على صنفين بشكل عام ، قسم أُرسل إلى قومه من دون رسالة سماويّة ذات شريعة كنوح (ع) وإبراهيم (ع) وصالح وهود وشعيب وغيرهم (ع). وقسم بُعث برسالة سماويّة ذات شريعة كموسى (ع) ومحمّد (ص) امّا عيسى (ع) فبُعث برسالة سماويّة وأُمر بتبليغها إلّا أنّها لمْ تكن ذات شريعة . وسواء أكان الأنبياء من ذوي العزم من الرسل وهم (نوح وإبراهيم وموسى وعيس ومحمّد ع) أمْ لمْ يكونوا من أُولي العزم من الرسل ، فإنّهم بلّغوا ما أمرهم الله تعالى ونصحوا لأقوامهم وأدّوا الأمانة من دون أنْ يسألوا أجراً عن أتعابهم .

وقد اتبع الأنبياء طريقة الرفق واللين من أجل إيصال عقيدة التوحيد إلى أقوامهم لسببين ؛ السبب الأوّل : لتكون العقيدة الجديدة مقبولة عن طريق تقديمها بشكل ملائم لا يستفزّهم ، والسبب الثاني : إنّ العقيدة – إنْ ترسّخت – يصعب إبدالها بعقيدة جديدة أُخرى فضلاً عن أنّ النبيّ لا يريد مصلحة شخصيّة له مثلما يفعل الحكّام . فإنْ لمْ يقتنع الأقوام فما على الرسول إلّا البلاغ المبين . ومع هذا فالنبيّ يعد قومه

بجنات الخلد إذا ما التزموا بأمر التوحيد وأخذوا بما يقوله نبيّهم . ونرى النبيّ لا يكتفي بدعوتهم وكفى ؛ بل نراه يلحّ عليهم ويكرّر دعوته مرّات كثيرة من دون ملل ولا كلل . يتبّع الحوار الهادف البنّاء ، يسمع منهم ويردّ على حججهم بحجج منطقيّة مقبولة لكلّ ذي لبٍّ .

ونرى أنّ صور الحجاج تأخذ ابعاداً مختلفة فمرّة يطرح النبيّ عليهم فكرة نبذ الأوثان واللجوء إلى التوحيد وأنّه لا يقول ذلك من تلقاء نفسه فهو نذيرٌ لهم . ومرّة يردّ على ادعاءاتهم في شأن عبادتهم وكونهم وجدوا آباءهم عليها عابدين غير كافية . ومرّة يُسقط ما في أيديهم من عبادة ويبهتهم . ومرّة ينزل عليهم العذاب مباشرة . ومرّة يحاورهم في أرزاقهم وبطلان الطريقة التي يحصلون بها عليها .

وهكذا فإنّ الأنبياء قد اتخذوا سبلاً مختلفة للدعوة إلى الله . وفي نهاية المطاف ، وحين يستنفد النبيّ كلّ السبل ولم يبقَ عنده شيء يلجأ إلى الدعاء إلى الله وإيكال الأمر إيه سبحانه وتعالى ، فيبلّغهم ، نبيّهم بقرب العذاب فيبهتهم عذاب الله تعالى بغتة بأشكال مختلفة من هذا العذاب . فمرّة تأخذهم الرجفة ومرّة تأخذهم الصيحة ومرّة يُغرقهم الله تعالى في اليمّ ومرّة بحاصب ومرّة بطوفان وهكذا .

أوّلاً: الدعوة إلى التوحيد قبل الكتب السماويّة (النبيّ نوح "ع" وقومه):

وأوّل نبيّ بعد آدم (ع) هو نوح (ع) [1] ، وقد عمّر زمناً طويلاً بين ظهراني قومه يدعوهم إلى عقيدة التوحيد متّبعاً طريق اللين معهم ؛ لهدايتهم إلى طريق الحقّ ونبذ ما كانوا علي من الأوثان قَالَ تعالى: ((يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ)) [2]. وقد بدأ النبي(ع) بالرّفق معهم إذْ قال: يا قومِ ثمّ بدأ بتبيان صفته لهم بأنّه نذير مبين فكيف يسمعون له ما لمْ يكنْ قد حظي بصفة تمتّعه للكلام معهم . وبعد هذه المقدّمة التي تضمّنت الرّفق وتضمّنت تبيان صفته (ع) قال لهم : أنِ اعبدوا الله واتّقوه وأطيعونِ بصفة الأمر الذي يتطلّب نتيجة أو جواباً له : يغفرْ لكم من ذنوبكم ويؤخرْكم إلى أجل مسمّى . قال الطبري : ((وقوله : (يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ) يقول : يغفر لكم ذنوبكم . فإن قال

قائل : أو ليست " من " دالة على البعض ؟ قيل : إنّ لها معنيين وموضعين ، فأما أحد الموضعين فهو الموضع الذي لا يصحّ فيه غيرها. وإذا كان ذلك كذلك لمْ تدلّ إلّا على البعض ، وذلك كقولك : اشتريت من مماليكك ، فلا يصحّ في هذا الموضع غيرها ، ومعناها : البعض ، اشتريت بعض مماليكك ، ومن مماليكك مملوكاً. والموضع الآخر : هو الذي يصلح فيه مكانها عن فإذا صلحت مكانها " عن " دلت على الجميع)) [٣] . وأنت إذْ تلاحظ أنّ النبيّ نوحاً (ع) قد بدأ معهم بطريقة مقنعة سهلة ليس فيها تعقيد وليس فيها ما يستحيل تطبيقه ؛ بل دعوة إلى ترك عبادة غير صحيحة والرجوع إلى عبادة حقّة بمقابل "ضمانات" إنْ صحّ القول تتمثّل بالمغفرة من الذنوب وتأخير الأجل .

وقد بيّن القرآن الكريم بما لا يقبل اللبس بأنّ النبيّ (ع) استعمل طرقاً كثيرة مع قومه ، الأمر الذي يدلّ دلالة صريحة بأنّه (ع) كان ذا عزم لا يلين وبانّه (ع) كان صبوراً حتّى لنعجب من صبره وتحمّل قومه إلى حدّ بعيد ، وقد دلّت سورة "نوح" على أنّها مكتملة الأبعاد في دلالتها على صورة الحوار بين نوح (ع) وبين قومه العاصين فذكرتْ من أوّل آية أنّ الله تعالى قد ذكر العذاب إنْ لمْ يدخل قوم نوح (ع) بالتوحيد ، قال تعالى : ((إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ)) [٤]. وبعد أنْ دعاهم نبيّهم (ع) إلى التوحيد لمْ يستجيبوا – مع أنّ القرآن الكريم لمْ يقل ذلك – ، وعرفناه من خلال قول النبيّ (ع) بعد الآيتين المذكورتين مباشرة : ((قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُواْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا)) [٥] .

فنوح (ع) رفع القضيّة إلى الله سبحانه وتعالى بعد أنْ دعاهم ولمْ يستجيبوا ؛ بل إنّهم ازدادوا بعد الدعاء فراراً من دعوة نبيّهم ! ولمْ يقفْ نوح (ع) عند هذا الحدّ ليبيّن فرارهم من الدعوة وعدم تقبّل التوحيد ؛ بل ذكر أيضاً : أنّهم يجعلون أصابعهم في آذانهم – كناية عن عدم الرغبة في السّمع – واستغشوا ثيابهم – كناية عن عدم الرؤية – وبعد هذا اصرّوا واستكبروا استكباراً . ونلاحظ في هذه "الشكوى" التي رفعها

النبيّ الكريم إلى ربّه تبيان النبيّ "صفة" قومه ، فإنّهم "كلّما" دعاهم نبيّهم ليغفر الله لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم ، دلالة على عدم قناعتهم بدعاء النبيّ (ع) – مع أنّ هذا الدعاء في صالحهم – واستغشوا ثيابهم ، وفي هاتين الحالتين معاً ، نلمس سفاهةً في الأُسلوب الذي يتّبعونهم مع نبيّهم ، فهو يدعو لهم وهم يسخرون منه وتلك أخلاق السّفهاء وقد قدّم الله تعالى عن طريق نوح (ع) العقوبة في حال لمْ يقتنع قوم نوح بدعوة التوحيد ؛ لسفاهتهم واستهتارهم بطريق الحقّ وأخذوا يصرّون ويستكبرون . وبعد ما فعلوا ذلك ، قام النبي بدعوتهم جهاراً فلم ينفكّ أنْ يدعو لهم ، قال تعالى على لسان نوح (ع) : ((ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا)) [٦] فقد أعلن نوح دعوته إليهم وأسرّ . وقد فصّل في طريقة خطابه معهم : فطلب منهم إستغار ربّ العالمين ؛ وبهذا سيحصلون على بركات السّماء بأنْ ينزل عليهم المطر مدراراً ويحصلون على مدّ الله تعالى لهم بالأموال وبالبنين ويرزقهم ببساتين وبأنهار . وبعد أنْ لمْ يجدْ نوح (ع) الاستجابة منهم يقول: ما لكم لا ترجون لله وقاراً ، وهذا القول يدلّ على بذاءتهم واستخفافهم بالرسالة وبرب العالمين .ثمّ ينطلق النبي (ع) ليبيّن لهم أنّ الله تعالى خلقهم أطواراً وهم يرون ذلك ويعاتبهم بقوله : ألمْ تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقاً ولفت انظارهم إلى ضوء القمر والشمس وأنّ الله أنبتهم من الرض وهو قادر على إخراجهم للحساب مرّة أخرى ومهّد الأرض وسهّلها للاستخدام . فتعداد نعم الله تعالى عليهم تُفيد بعنادهم فلا تنفع نعمة واحدة مع هؤلاء لكي يعرفوا طريق الصواب وتُفيد في انّ الله تعالى لطيف بعباده لا يريد تعذيبهم إلّا بعد انْ يستنفد النبيّ (ع) السبل كافّة معهم . وبعد عصيانهم الذي

أشار إليه القرآن ضمناً ولمْ يذكره صراحة ، فبعد كلّ ما قدّمه النبي نوح (ع) لمْ نعرفْ بم اجابوه ، فقد قال تعالى بعد ذاك : ((قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا)) [٧] ربّ إنّهم عصوني بمعنى إنّهم لمْ يقبلوا دعوته ولمْ يقتنعوا بكلّ ما قدّمه لهم من حجج وبراهين دامغة ليس فيها حاجة إلى بيان أكبر ؛ ولكنّهم اتّبعوا الخاسرين ممّن يملكون مالاً وولداً ويبدو انّ في هذا إشارة إلى الطغاة المتنفّذين في عهد نوح (ع) وبعد ذلك قالوا : لا تذرنّ آلهتكم ولا تذرنّ (ودّاً وسواعاً ويغوث ويعوق ونسر) وهذه أسماء لآلهة كانوا يعبدونها – وَهِيَ أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ (ع) كَانُوا قَوْمًا صَالِحِينَ بَيْنَ آدَمَ وَنُوحٍ وَكَانَ لَهُمْ أَتْبَاعٌ يَقْتَدُونَ بِهِمْ، فَلَمَّا مَاتُوا قَالَ أَصْحَابُهُمُ الَّذِينَ كَانُوا يَقْتَدُونَ بِهِمْ : لَوْ صَوَّرْنَاهُمْ كَانَ أَشْوَقَ لَنَا إِلَى الْعِبَادَةِ إِذَا ذَكَرْنَاهُمْ ، فَصَوَّرُوهُمْ فَلَمَّا مَاتُوا وَجَاءَ آخَرُونَ دَبَّ إِلَيْهِمْ إِبْلِيسُ فَقَالَ : إِنَّمَا كَانُوا يَعْبُدُونَهُمْ وَبِهِمْ يُسْقَوْنَ الْمَطَرَ فَعَبَدُوهُمْ [٨] – ثمّ قال نوح (ع) إنّهم أضلّوا كثيراً . فبعد كلّ هذا ألا يستحقّون العذاب ؟ لذلك قال نوح (ع) ربّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديّاراً . قال ابن كثير في تفسير هذه الآية : ((وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا)) أي: لا تترك على وجه الأرض منهم أحداً ، قال الضحاك : (ديّاراً) واحداً . وقال السدي: الديار: الذي يسكن الدار. فاستجاب الله له ، فأهلك جميع من على وجه الأرض من الكافرين حتى ولد نوح لصلبه الذي اعتزل عن أبيه ، وقال : ((سآوي إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين)) [٩] . وقال ابن أبي حاتم : قرئ على يونس بن عبد الأعلى ... عن ابن عباس قال : قال

رسول الله (ص) : " لو رحم الله من قوم نوح أحداً ، لرحم امرأة ، لمّا رأت الماء حملت ولدها ثم صعدت الجبل ، فلما بلغها الماء صعدت به منكبها ، فلمّا بلغ الماء منكبها وضعت ولدها على رأسها ، فلما بلغ الماء رأسها رفعت ولدها بيدها ، فلو رحم الله منهم أحدا لرحم هذه المرأة . " هذا حديث غريب ، ورجاله ثقات ، ونجى الله أصحاب السفينة الذين آمنوا مع نوح عليه السلام ، وهم الذين أمره الله بحملهم معه)) [١٠] .

ونلاحظ أنّ النبيّ نوح (ع) يخاطبهم بأمر التوحيد ويدعو الله لهم بأمر التوحيد وحين دعا عليهم كان دعاؤه بأمر التوحيد كذلك . فلمْ يجعل المسألة بينه وبين قومه مسألةً شخصيّة ؛ وكان هذا العمل يسير فيه الأنبياء (ع) جميعاً ولا يريدون أجراً على دعوتهم أو على مجهودهم ، قال تعالى : ((وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ)) [١١] .

فالذي لا يسأل أجراً لا يطلب شيئاً شخصيّاً ولا يعادي قومه من أجل مردود شخصيّ خاص ، إنّ عمله أكبر من ذلك ، وقد رأيتَ النبي نوحاً (ع) يدعو لهم بالخير وهم يقابلونه بالسفاهة والإبتعاد عن طريق الحقّ . ورأيته أيضاً متمسّكاً بأكبر قضيّة خُلق من أجلها الإنسان ، وهي قضيّة التوحيد ؛ فإنّ الله تعالى لا يغفر أنْ يُشرك به ويغفر ما دون ذلك ، قال تعالى: ((إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا)) [١٢]

ثانياً: النبيّ إبراهيم (ع) وقومه:

وجاء النبي إبراهيم الخليل (ع) [١٣] بعد النبي نوح (ع) وهو الثاني في ترتيب الأنبياء من أهل العزم . وقد دعا قومه إلى نبذ الأصنام والأوثان ، وقد منحه الله تعالى شخصيّة قويّة وذكاء حادّا ومقدرة على الحجاج ، تجلّى ذلك في حواره مع طاغية عصره ، قال تعالى : ((أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)) [١٤] .

قال الطبري في تأويل هذه الآية : ((أوّل جبار كان في الأرض نمروذ . فكان الناس يخرجون فيمتارون من عنده الطعام ، فخرج إبراهيم يمتار مع من يمتار ، فإذا مر به ناس قال : من ربكم ؟ قالوا : أنت ! حتى مر إبراهيم ، قال : من ربك ؟ قال : الذي يحيي ويميت ؟ قال : أنا أحيي وأميت ! قال إبراهيم : فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ! فبهت الذي كفر . قال : فرده بغير طعام . وهو الذي قال الله : ((فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ))))[١٥].

وممّا يُلفت النظر أنّ القرآن الكريم لمْ يذكر اسم الذي حاجّ إبراهيم النبي (ع) أو لقبه ، بل إنّ الذي أطلق عليه التسمية المفسّرون وقد ذكر الإنجيل اسمه صراحة بأنّه : كوش بن حام بن نوح ، وبأنّه أوّل ملك في الأرض وكان يملك مشارق الأرض ومغاربها وبانّ مدناً قد سمّيت "تيّمناً" باسمه . ولكنّ الحقيقة التي ذكرها القرآن : أنّ هذا الرجل كان تافهاً غير ذكيّ ؛ والدليل على ذلك لمْ يذكره القرآن باسمه – تحقيراً له – وقد يعلم الذي يدقّق في سياق الآية وما قاله المفسّرون بأنّه ادّعى الإلوهيّة من غير قرينة ولا دليل فعندما يمرّ على الذين يمتارون الطعام منه يسألهم : منْ ربّكم ؟ فيجيبون : أنت ! وحين مرّ بالخليل (ع) قال له من ربّك " قال : ربّي الذي يحيي ويميت وهذا جواب مختلف ! ولو ترك الأمر وسكت لكان أفضل له ؛ لكنّه لمْ يسكتْ بل قال بغرور وغطرسة : أنا أحيي وأميت ، معتقداً إنّه باستطاعته قتل الناس وهذا "موت" وبترك قتلهم وهذا "حياة" وهذا تفسير قول النبي (ع) بشكل سطحيّ ومحدود ، فالذي قصده النبيّ (ع) أنّ الحياة تعني : أنّ الله يحيي من عدم ولا يقصد ترك الحيّ بمعنى أحياه ، وتعني إحياء الشجر اليابس فيصبح مخضرّاً بعد موت الأرض ، وتعني بعث الموتى كالنشور وكبعث الميت من قبره – كما حصل مع إبراهيم (ع) والطير – وكما حصل مع عزير (ع) بعد موته مائة عام – و – كما حصل مع اليهود في عهد موسى ماتوا فبُعثوا – و – كما حصل لعيسى (ع) بإذن الله – والذي قصده النبيّ (ع) أنّ الموت قد يكون نتيجة مرض أو سقوط من مرتفع أو بافتراس حيوان أو من غرق او من حرْق وغير ذلك [١٦] . ولا يقتصر على القتل فقط ، ومع ذلك استأنف إبراهيم الخليل محاججته بقوله : فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي

بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ فبهت بمعنى لم يحر جواباً وبقي صامتاً فالله لا يهدي ظالماً مثله بعد أنْ منحه الملك . ألا ترى تفاهته وسخفه وانّه لمْ يطل في حجاجه ؛ لأنّه غبي لا يفهم ، فليس كلّ من ملك أو صار أميراً بذكي . وأكثر هؤلاء عديمو الوفاء لله تعالى الذي منحهم ملكاً وهم لا يستحقّونه . وكان صنيع إبراهيم (ع) الحجاج وإسقاط ما في يد الملك الجبّار ، أمّا صنيعه مع قومه وأبيه فكان عن طريق السؤال ، قال تعالى : ((وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً ۖ إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)) (١٧). وقال الطبري في تأويل هذه الآية: ((وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن قيل إبراهيم لأبيه آزر أنه قال :"أتتخذ أصناماً آلهة" ، تعبدها وتتخذها ربًّا دون الله الذي خلقك فسوَّاك ورزقك ؟ ... "إني أراك وقومَك في ضلال مبين" ، يقول : "إني أراك" ، يا آزر ، "وقومَك" الذين يعبدون معك الأصنام ويتخذونها آلهة " في ضلال" ، يقول : في زوال عن محجّة الحق ، وعدول عن سبيل الصواب " مبين" ، يقول : يتبين لمن أبصَره أنه جورٌ عن قصد السبيل ، وزوالٌ عن محجة الطريق القويم . يعني بذلك أنه قد ضلّ هو وهم عن توحيد الله وعبادته، الذي استوجب عليهم إخلاص العبادة له بآلائه عندهم ، دون غيره من الآلهة والأوثان)) (١٨) . وترى النبيّ إبراهيم (ع) كلّم أباه وقومه على حدّ سواء بقوله (ع) : لإنّي أراك وقومك في ضلال مبين . ولمْ يهادنْ أباه أو يميّزه عن قومه الذين يعبدون آلهةً من دون الله ، مع أنّه (ع) كان يستغفر ربّه لأبيه ، حتّ تبيّن أنّه عدوّ لله عندئذ تبرّأ منه ، قال تعالى: ((وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ)) (١٩) .

وهذا درسٌ بليغ في أنّ التوحيد لا نقاش فيه ولا جدال ولا تنفع معه قرابة ، إنّ هذا الأمر حتميّ وهو فاصل بين الكفر والإيمان . ولا مساواة بينهما ولا مجاملة . وكان النبيّ إبراهيم قد واجه أباه وقومه وهو ما زال فتىً بقضيّة التوحيد وكان الملك آنذاك جبّاراً عاصياً وهو الذي أمر بإحراق النبيّ ، لكنّ المعجزة الإلهيّة كانت حاضرة ، وإذْ نلاحظ انّ إبراهيم كان لا يخاف في الله لومة لائم واجه الأمر هنا وواجه

الملك مباشرة حين جاء يمتار مع الناس ، قال تعالى : ((إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ قَالَ لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ فَجَعَلَهُمۡ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرٗا لَّهُمۡ لَعَلَّهُمۡ إِلَيۡهِ يَرۡجِعُونَ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔـٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتٗى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ قَالُواْ فَأۡتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔـٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔـٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ)) [٢٠] ، قال ابن كثير : ((وَقَوْلُهُ قالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلى أَعْيُنِ النَّاسِ أَيْ على رؤوس الْأَشْهَادِ فِي الْمَلَإِ الْأَكْبَرِ بِحَضْرَةِ النَّاسِ كُلِّهِمْ ، وكان هذا هو المقصود الأكبر لإبراهيم عليه السّلام أنْ يبيّن في هَذَا الْمَحْفِلِ الْعَظِيمِ كَثْرَةُ جَهْلِهِمْ وَقِلَّةُ عَقْلِهِمْ فِي عِبَادَةِ هَذِهِ الْأَصْنَامِ الَّتِي لَا تَدْفَعُ عَنْ نَفْسِهَا ضَرًّا ، وَلَا تَمْلِكُ لَهَا نَصْرًا ، فَكَيْفَ يُطْلَبُ مِنْهَا شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ ؟ قالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذا بِآلِهَتِنا يا إِبْراهِيمُ قال بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذا يَعْنِي الَّذِي تركه لم يكسره فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ وَإِنَّمَا أَرَادَ بِهَذَا أَنْ يُبَادِرُوا مِنْ تِلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ فَيَعْتَرِفُوا أَنَّهُمْ لَا ينطقون ، وأنّ هَذَا لَا يَصْدُرُ عَنْ هَذَا الصَّنَمِ لِأَنَّهُ جَمَادٌ)) [٢١] ؛ وقد استطاع الملك العاصي أنْ يحشّد الناس بالباطل ويجعلهم يخوضون فيما يخوض فيه من ضلال واستخفّ عقولهم فاعتقدوا به ربّاً واعتقدوا بآلهة أُخرى وأخذوا ينتصرون لها بإحراقهم إبراهيم (ع) حيّاً . فانتصر الله تعالى لنبيّه الكريم بأنْ حوّل النار من صفة الحرق إلى صفة أُخرى مغايرة تماماً وهي البرد والسلام وهذه معجزة أُخرى من جملة المعجزات الإلهيّة التي تمثّلت في إحياء الموتى

وموت الأحياء ومشرق الشمس من الشرق ومغربها من الغرب ؛ وبعد هذه الجهود الجبّارة التي بذلها النبي إبراهيم الخليل (ع) في ترسيخ التوحيد وجعله باقياً في ذريّته من الأنبياء ، قال تعالى : ((أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَـٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)) [٢٢] . ويعقوب (ع) هو حفيد النبي إبراهيم الخليل (ع) من ولده إسحاق ، وذكرت الآية عمّ النبي يعقوب (ع) وهو النبي إسماعيل جدّ العرب ، فترى ذريّة طيّبة تعبد الله الواحد الأحد وهي له مسلمة . هذه الذريّة استجابة من الله تعالى لدعاء النبي إبراهيم الخليل (ع) قال تعالى : ((وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)) [٢٣] . وقال تعالى استكمالاً لترسيخ التوحيد في ذريّة إبراهيم الخليل (ع) : ((وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ)) [٢٤]

ثالثاً: الكتب السماويّة (النبي موسى "ع" وقومه):

وجاء من بعد إبراهيم (ع) موسى [٢٥] وهو أوّل نبيّ بُعث إلى بني إسرائيل ، وقد أعطى الله التوراة وصحفاً – كما أعطى لإبراهيم الخليل صحفاً – قال تعالى : ((إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ)) [٢٦] وقال ابن كثير في هذه الآية : وهذا مثل قوله تعالى : ((أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ)) [٢٧] ثُمّ شَرَعَ تَعَالَى يُبَيِّنُ مَا كَانَ أَوْحَاهُ فِي صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى فَقَالَ : أَلَّا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى أَيْ كُلُّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ نَفْسَهَا بِكُفْرٍ أَوْ شَيْءٍ مِنَ الذُّنُوبِ فَإِنَّمَا عَلَيْهَا وِزْرُهَا لَا يَحْمِلُهُ عَنْهَا أَحَدٌ [٢٨] . وقد دعا موسى فرعون إلى التوحيد مثلما فعل النبيّ إبراهيم في دعوته نمرود ، فقد امره الله تعالى الذهاب إلى فرعون بعد أنْ طغى ، قال تعالى : ((ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ)) [٢٩] وطلب منه تعالى ومن أخيه أنْ يقولا له قولاً ليّناً لعلّ اللين يُجدي معه نفعاً ، فقال تعالى : ((وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ)) [٣٠] . وتصرّف فرعون بتأنٍّ أوّل الأمر وطلب

من موسى (ع) أنْ يأتي بحجة على "ادعائه" بأنّه رسولٌ من ربّ العالمين وكان أكثر حكمة من نمرود ، فأتى بالحجّة وهي آية العصى واليد البيضاء وعندها تكلّم الملأ من قوم فرعون ولم يتكلّمْ هو ! واتهموا موسى (ع) بالسحر ودار حديث بين فرعون وملئه وأشاروا على فرعون بتاجيل الردّ لحين استدعاء سحرة من أصقاع مصر لمواجهة موسى (ع) وهذا يدلّ على استشعار فرعون وملئه الخطر من موسى (ع) وقد انتهز السحرة الفرصة وطلبوا أجراً من فرعون ووافق عليه – إنْ غلبوا موسى (ع) – وبعد أنْ حدث ما بين السحرة والنبي موسى والقوا حبالهم واسحروا أعين الناس أوحى الله تعالى على موسى انء يُلقي بعصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون فانهزم السحرة وسجدوا وصاروا مع موسى (ع) وهُزم فرعون [٣١] ، قال تعالى : ((وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ)) [٣٢] فانتصر موسى (ع) وأخوه هارون (ع) على فرعون الذي ادّعى الإلوهيّة وكان عالياً من المسرفين ، وظهر التوحيد مرّة أُخرى على الدين الزائف . ولمْ يقف الملأ من قوم فرعون عند هذا الحدّ من الهزيمة ؛ بل استأنفوا مواجهة النبي موسى وبني إسرائيل متذرّعين بفرعون – كونه "إلهاً" في نظرهم ! – وبآلهته ، قال تعالى : ((وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ)) [٣٣] وأوكل النبي موسى الأمر إلى الله تعالى وطلب من بني إسرائيل الإستعانة بالله تعالى وبالصبر ، حتّى دمّر الله ما كان يصنع فرعون وقومه ، قال تعالى : ((وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ)) [٣٤] . وينتصر الحقّ بقيادة النبي موسى وبتكفّل الله تعالى هزيمة فرعون وقومه وينتصر للمستضعفين . وللأسف يرى بنو إسرائيل كلّ ذلك بأعينهم ؛ ولكنّهم ينقلبون على موسى ، ويتركون عبادة الواحد الأحد الذي أنجاهم من فرعون ، فلمّا رأوا قوماً يعكفون على أصنام لهم طلبوا من موسى (ع) أنْ يجعل لهم إلهاً مثل أُولئك ! ، قال تعالى

: ((وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ)) [٣٥] .

ويبدو أنّ الآيات التي رأوها لمْ تكنْ كافية لهمْ وكان سحرة فرعون أفضل منهم ومع هذا فالنبيّ يقول لهم : إنّكم قوم تجهلون مع خطورة ما قاموا به وذكر لهم نبيّهم فضل الله عليهم إذْ أنجاهم من آل فرعون وإذْ فضّلهم على العالمين ؛ ومع كلّ هذا استغلّوا ذهاب موسى للمناجاة وأتّخذوا من حليّهم عجلاً يعبدونه ، قال تعالى : ((وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ)) [٣٦] . وإنّنا إذْ نرى هؤلاء القوم كم مرّة يُغفر لهم وهم ينكصون ويغفر لهم وينكصون مرّة أُخرى ؛ لذا طلبوا الرحمة والمغفرة معاً ، فالمغفرة لا تنفع إلّا مع المؤمنين وهؤلاء خرجوا من دائرة الإيمان أكثر من مرّة وبعد انْ غفر الله لهم ، قال تعالى يبيّن ذلك : ((وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ)) [٣٧] وقد رحمهم الله سبحانه وتعالى وغفر لهم ، وبهذا نُدرك المغفرة الإلهيّة التي خصّت المؤمنين وندرك الرحمة الإلهيّة التي شملت المؤمنين والكفّار فينبغي أنْ يكون الدعاة على مسؤوليّة اليوم ويدعون بهذا الإتجاه ويتجنّبون لغة التنفير والتعسير وتوعّد الناس بالنار . وتكون محور دعوتهم الوحدة الإسلاميّة والتعاون الذي يخدم المسلمين فقد أمر الله تعالى به بقوله تعالى : ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا ۘ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)) [٣٨]. وقال القرطبيّ في تفسير هذه الآية : ((وتعاونوا على البر والتقوى قال الأخفش : هو مقطوع من أول الكلام ، وهو أمر لجميع الخلق بالتعاون على البر والتقوى ; أي : ليعن بعضكم بعضا ، وتحاثوا على ما أمر الله تعالى واعملوا به ، وانتهوا عما نهى الله عنه وامتنعوا منه ; وهذا

موافق لما روي عن النبي (ص) أنه قال : الدال على الخير كفاعله ، وقد قيل : الدال على الشر كصانعه . ثم قيل : البر والتقوى لفظان بمعنى واحد ، وكرر باختلاف اللفظ تأكيدا ومبالغة ، إذ كل بر تقوى وكل تقوى بر . قال ابن عطية : وفي هذا تسامح ما ، والعرف في دلالة هذين اللفظين أن البر يتناول الواجب والمندوب إليه ، والتقوى رعاية الواجب ، فإن جعل أحدهما بدل الآخر فبتجوز . وقال الماوردي : ندب الله سبحانه إلى التعاون بالبر وقرنه بالتقوى له ; لأنّ في التقوى رضا الله تعالى ، وفي البر رضا الناس ، ومن جمع بين رضا الله تعالى ورضا الناس فقد تمت سعادته وعمت نعمته ، وقال ابن خويز منداد في أحكامه : والتعاون على البر والتقوى يكون بوجوه ; فواجب على العالم أن يعين الناس بعلمه فيعلمهم ، ويعينهم الغني بماله ، والشجاع بشجاعته في سبيل الله ، وأن يكون المسلمون متظاهرين كاليد الواحدة المؤمنون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم ، ويجب الإعراض عن المتعدي وترك النصرة له ورده عما هو عليه . ثم نهى فقال : ولا تعاونوا على الإثم والعدوان وهو الحكم اللاحق عن الجرائم ، وعن العدوان وهو ظلم الناس . ثم أمر بالتقوى وتوعد توعدا مجملا فقال: واتقوا الله إن الله شديد العقاب)) [٣٩]

رابعاً: الدعوة إلى الله من الأنبياء من غير أولي العزم من الرسل:

والنبي الذي دعا قومه إلى ديانة التوحيد بعد الأنبياء من ذوي العزم من الرسل هو شعيب (ع) [٤٠] الذي بُعث إلى قومه في مدين ، قال تعالى: ((وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)) [٤١] . وقد بدأ نبيّ الله بكلمة "يا قوم" لاستمالتهم إليه وجذب انتباههم ؛ فغرضه وضعهم على طريق الحقّ وبدأ مباشرة بأهمّ شيء عند الإنسان وهو التوحيد إذْ قال : اعبدوا الله ما لكم من إله غيره . وقال: قد جاءتكم بيّنة من ربّكم ((ولم يحدد النص البينة أو الآية أو المعجزة التي أعطيت لشعيب (ع) ، ولكن لعل البينة التي أشار إليها شعيب عليه السلام هي:

أنهم على علم بما حصل لقوم لوط ومَن قبلَهم ((وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ)) [٤٢] وطلب منهم بعد ذلك الإيفاء بالكيل والميزان . وفي هذا دلالة على أنّهم كانوا يُنقصون المكاييل والموازين ؛ لأجل الكسب الحرام . ثمّ عطف على ذلك بقوله : ولا تبخسوا الناس أشياءهم ((والبخس هو الظلم بعينه ، ولهذا وصفهم الله بالظلم ((وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ)) [٤٣] ، وبخس الناس حقوقهم يشمل كل شيء ، فالبخس في البيع والشراء ، واستيفاء الحقوق .. وكأن هذه الصفة لصيقة بهم)) [٤٤]، وفي هذا تلخيص عن سلب الحقوق جميعاً فلا يصحّ أنْ تبخس الحقوق ؛ لأنّ في هذا فساد العدالة وإذا ما فسدت العدالة تكون الحياة غابة يأكل فيها القويّ الضعيفَ .

ومن الجدير بالذكر أنّ موقع قوم شعيب على الطرق التجاريّة ح لهذا أهّلهم هذا الموقع أنْ يقطعوا الطريق ويبخسوا الناس أشياءهم ويفسدون في الطريق ويرتكبون المنكرات وكانوا ظالمين فقد وصفهم القرآن بالظلم ، قال تعالى : ((وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ)) [٤٥] ثمّ قال: ولا تُفسدوا في الأرض بعد إصلاحها . وإذا ما نظرت فيما قاله النبي شعيب (ع) تجده منهج عمل شامل للبشريّة وهو يصلح في كلّ زمان ومكان ، فالدعوة إلى التوحيد تجعل المرء مطمئناً إلى أنّ خلقه موجّه إلى العبادة ويكتسب راحة نفسيّة من خلال معرفة خالقه والاطمئنان إلى وجوده ؛ فلا يظلّ حائراً يتخبّط في سرّ وجوده ؛ بل إنّ سبب الوجود هو العبادة وتوحيد الله تعالى . وقد عضّد قوله (ع) بـــ"قد جاءتكم بيّنة من ربّكم" فدعوته لمْ تكنْ من عند نفسه ؛ بل فيها برهان من الله تعالى .

وينبغي أنْ نلتفت إلى قوله (ع) : من ربّكم دلالة على استعطافهم فحين يسمع قوم شعيب (ع) ذلك يشعرون بأنّ الخطاب شملهم فالله ربّهم مثلما هو ربّ شعيب . ودعوته إلى إيفاء الكيل والميزان تجسّد العدالة بتساوي الثمن المدفوع بالبضاعة المتسلّمة ؛ فلا يصحّ أنْ تدفع ثمن "كيلو غرام" وتأخذ أقلّ من ذلك الوزن . ونلاحظ اليوم الموازين الإلكترونيّة لكلّ كتلة ، فوزن السوائل يختلف عن وزن المواد

الصلبة ، وللحرارة مقياسه وللدائرة الكهربائية مقياسها .. وهكذا . وهنا نجد خطاباً "اقتصاديا" متقدّماً – إنْ صحّ التعبير – ولمْ يفت النبي شعيب (ع) أنْ يقرن مطالبته بإيفاء الكيل والميزان بأنّ قومه بخير ؛ فلمْ يكونوا "مضطرّين" إلى انْ ينقصوا تلك الموازين ، قال تعالى يبيّن ذلك : ((وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ)) [٤٦] فما معنى اللجوء إلى الأكل الحرام ما دام الإنسان غير محتاج إلى ذلك وغير مضطرّ إليه ؟! ودعوته إلى إنصاف الناس وعدم بخسهم حقوقهم دعوة راقية وهي تخدم البشريّة وأهمّ ما يصبو إليه الناس ، فهل يصحّ أنْ يوضع الطبيب موضع الفلّاح ؟ أو هل يصحّ أنْ تسلب ذا حقّ حقّة من علم أو من حرفة ؟ أو هل يصح أنْ تشتري الذهب بثمن البصل ؟ طبعاً لا يصحّ ؛ وإذا ما لاحظت الدول التي يُطلقون عليها "الدول النامية" فإنّها تضع الأشخاص في غير مواضعهم الحقيقيّة ، فتراهم لا يكترثون للعلم ولا لمنْ يحمل شهادة عالية ، وهم عادة ما يعتمدون على القبيلة او القرابة او المنطقة او العرق ، ونرى – إلى اليوم – التمييز العنصري على اللون أو الطائفة أو غير ذلك . والنتيجة هو تخلّف الدولة برمّتها فحين يسود الظلم تفقد الدولة ديمومتها ويكون سقوطها سريعاً. ودعوته إلى إصلاح الأرض بعد إصلاحها بقوله : ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها دعوة "منطقيّة" فالمفروض أنْ يسعى الإنسان إلى صلاح الأرض ولا يجوز انْ يقوم بإفسادها بعد أنْ صَلُحَتْ . ولا يخفى على ذي لبّ أنّ في هذا مفسدة للجميع لمن يُفسد في الأرض ولمن يكون معه .

وقد كان النبي شعيب (ع) خطيباً ومن شروط الخطيب الإقناع وفصاحة النطق وقوّة الحجّة وقد تحقّقت هذه الشروط وغيرها فيه (ع) ، ((قال ابن إسحاق : وكان رسول الله (ص) فيما ذكر لي يعقوب ابن أبي سلمة إذا ذكر شعيباً قال : "ذاك خطيب الأنبياء" ! لحسن مراجعته قومه فيما يرادُ بهم . فلما كذَّبوه وتوعَّدوه بالرَّجْم والنفي من بلادهم ، وعتوا على الله ، أخذهُم عذاب يوم الظُّلة ، إنه كان عذاب يوم عظيم)) [٤٧] .

وقد كان شعيب (ص) قدّم كلّ شيء لقومه ، وأعتقد جازماً أنْ لا أحد من قومه آنذاك يستطيع أنْ يقدّم ما قدّم النبيّ شعيب (ع) لهم ؛ لشمول ما قدّمه (ع) ولو نظرت – اليوم – إلى ما وصلت إليه الدول المتقدّمة من إيفاء الموازين ومن الدقّة في صنع المواد ومن الصدق في التعاملات التجاريّة وعن احترام التخصّص ووضع الرجل المناسب في المكان المناسب لمْ تجدها تخرج عمّا قدّمه شعيب (ع) لقومه .

وبعد أنْ قدّم شعيب (ع) كبرى المسائل المهمّة في حياة البشر من عبادة التوحيد ومن ما يحتاج إليه الإنسان في معيشته قال: ((وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبۡغُونَهَا عِوَجٗاۚ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡۖ وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ)) [٤٨] فاستأنف قوله وحجّته عليهم بأنْ نهاهم عن قبح أعمالهم ، فلمْ يكفهم اتخاذ آلهة أخرى وإنقاص المكاييل ، بل أخذوا يقعدون للمؤمنين بكلّ صراط – دلالة على إصرارهم على الباطل – يصدّون منْ آمن بدعوة شعيب (ع) يريدونها عوجاً ، وهناك رأي بانّهم كانوا قطّاع طرق ، فقد نقل الطبري ((وهذا الخبر الذي ذكرناه عن أبي هريرة ، يدلّ على أن معناه كان عند أبي هريرة : أن نبي الله شعيباً إنما نهى قومه بقوله : (ولا تقعدوا بكل صراط توعدون) ، عن قطع الطريق ، وأنهم كانوا قُطَّاع الطريق)) [٤٩].

وهو في هذا يذكّرهم بأنّ الله تعالى كثّرهم بعد انْ كانوا قلّة ، فهم من مدين وهو رجل واحد ثمّ رزقهم الله بذريّة كثيرة ، ودعاهم إلى النظر في عاقبة المفسدين أيْ : من الأمم الخالية والقرون الماضية ، وما حلَّ بهم من العذاب والنكال باجترائهم على معاصي الله وتكذيب رسله [٥٠] . وبعد أنْ عرض شعيب (ع) التوحيد على قومه وذكّرهم بنعم الله تعالى عليهم كذّبوه بقولهم : ((قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ)) [٥١] وقولهم هذا يُشبه قول الأمم التي كذّبت أنبياءها ، وبدلاً من أنْ يقدّموا حجّة قويّة على غرار حجّة نبيّهم شعيب (ع) قالوا : إنّا أنت بشرٌ مثلنا ، وهذه لمْ تكن حجّة أصلاً ! وقالوا إنّما أنت من المسحّرين ، قالوا ذلك ليهربوا من الحقّ ومن إتيان الدليل الذي به يحاجّون

نبيّهم . ويبدو أنّهم أحسّوا بقوّة حجّة شعيب (ع) ؛ لأنّه خطيب مفوّه وله حججه الخاصّة وفصاحة وقوّة بيّنة وبلاغة يتفوّق بها عليهم رأوا أنْ يفكّروا بشكل اكبر ذكاء فطرقوا مسألة الدين وهم على دين آبائهم فلا يحقّ للنبيّ – متّبعاً صلاته – أنْ يأمرهم بترك دينهم الوثني ، قال تعالى : ((قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا)) [٥٢] وفي هذا تطوّر في الحوار حين قرنوا الحجّة بالحجّة والدليل بالدليل إذْ أنّهم جعلوا آلهتهم بإزاء إله شعيب الواحد الأحد . وحين طالبهم بعدم قطع الطريق وإيفاء الكيل والميزان عدّوا ذلك تدخّلاً في شؤونهم الإقتصاديّة ففكّروا بمواجهته بهذا ، قال تعالى : ((أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ)) [٥٣] فقولهم : في أموالنا : أيْ هي تخصّنا ونحن أحرارٌ فيها فهي ملك شخصيّ . واعقبوها بعتب لا يخلو من سخرية بقولهم : إنّك لأنت الحليم الرشيد ، وقلت سخرية ؛ لأنْ قولهم : حليم ورشيد ينافي ما قالوه سلفاً : إنّما انت من المسحّرين و من الكاذبين . قال عبد الرحمن عبد الواحد : ((فكأنهم يقولون : هذه أنظمتنا الاقتصادية ما شأنك بها ؟ لماذا تتدخل فيها ؟ وأنت رجل حليم ورشيد فكيف تسمح لنفسك أن تتدخل في مناهجنا الاقتصادية وسياستنا المالية ؟ فهل هذا من حلمك ورشدك أن تهدم أنظمتنا التي صنعناها لأنفسنا منذ أمد طويل ، فقد عاش عليه أجدادنا وآباؤنا ، ونحن على آثارهم سائرون ؟ وما علاقة الصلاة بالاقتصاد والمال ؟.. وما علاقة الدين بالحياة التي نحياها ؟.. الدين له مَعْبَدُه ، والحياة تُدار بما تراه عقولنا وعقول من سبقنا!!! إنها مقولة الكافرين – قديماً وحديثاً – : (لا علاقة للدين بالحياة) ، ثم هم يسخرون من نبيهم بالتعريض بالحلم والرشد ، وكأنهم يقولون إن صفة الحلم والرشد ليست إلا لمن سار على نهجهم ونهج آبائهم.. وهذا ما سيواجهه أصحاب الحق اليوم سيقال لهم إنكم تفسدون أنظمتنا الحياتية)) [٥٤] ويبدو أنّ الوهن والضعف فيهم وفي عقيدتهم رجع مرّة أُخرى لهم ، قال تعالى: ((قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ)) [٥٥] وأنت إذْ تلاحظ هذا الوهن ظاهراً من قولهم : ما نفقه كثيراً ممّا تقول ، فالذي لا يفهم كلام أحد من قوله يتكلّم بلسانه تراه ضعيفاً من الناحية الذهنيّة والفكريّة

. ثمّ تحوّلت المسألة – بعد أنْ عجزوا عن إدراك كنه أكثر ما يقول لجأوا إلى الموازنة بين قوّتين ، قوّتهم – وهم الأكثر عدداً – بإزاء قوّة شخص واحد قالوا عنه : وإنّا لنراك فينا ضعيفاً ، ومسألة الاستضعاف يلجأ إليه أهل الباطل دوماً لنهب حقوق الآخرين إذْ كنّا بإزاء موازنة بين عقيدتين ثمّ صرنا بإزاء قوّتين "عضليّتين" ! ثمّ أكملوا استعراض قوّتهم أمام رجل "ضعيف" بقولهم : ولولا رهطك لرجمناك ، وهذا يعضّد ما أنا فيه من القوّة فهم يحسبون لرهط شعيب (ع) حساباً ؛ لكنّهم لا يحسبون له حساباً ! ((هذه المقولة تبين البون الشاسع بين ما يدعو إليه النبي وبين ما هم فيه ، فهم فعلاً لا يفقهون ما يقول لهم نبيهم ، ولو فقهوا لآمنوا .. لأن المعاني التي يذكرها صاحب الحق لا يفقهها إلا من هيأ كل مسامات كيانه وأجهزة الاستقبال عنده لكي يستمع ويعي فيهتدي... ومن عجائب الجاهلية أن (الضُعف) دمغوا به شعيباً (ع)، وجعلوه سبباً لعدم قبولهم لما يدعوهم إليه ، وكان عليهم أن يفكروا في سبب جعل هذا (الضعيف) يقف هذا الموقف الصلب أمامهم ، يدعوهم إلى نجاتهم من العذاب في الدنيا والآخرة ، ولكن الجاهلية لا تعترف إلا بالقوة والبطش ، ولا تخضع إلا لمن يستخدم معهم الهيمنة والجبروت فتستذلهم وتقهرهم .وبدلاً من ترك (الضعيف) الذي ليس له قوة طليقاً يتحرك ويستقيم على ما يدعو إليه كيفما يشاء – مع العلم أن تلك الدعوة التي يدعو إليها لا تصاحبها أي قوة مادية إلا قوتها الذاتية – بدلاً من ذلك أعلنوا ببجاحة وفجور أنه لولا مراعاة قومه لرجموه ولعلهم يريدون قتله بالرجم ، وهي وسيلة بشعة " وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ " ، فعصبية القبيلة والعشيرة هي المرعية عندهم وليس عصبية العقيدة ، وهذا الموقف ينبئ عن هبوط القيم لديهم ، ورفضهم للقوة الحقيقية التي يحتمي بها شعيب (ع) وهي قوة الله . وقالوا : " وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ " فالعزة في نظرهم هي العشيرة والرهط " فحين تفرغ النفوس من العقيدة القويمة والقيم الرفيعة والمثل العالية ؛ فإنها تقبع إلى الأرض باحثة عن مصالحها القريبة وقيمها الدنيا ؛ فلا ترى حرمة يومئذ لدعوة كريمة ، ولا لحقيقة كبيرة ؛ ولا تتحرج عن البطش بالداعية إلا أن تكون له عصبة تؤويه ؛ وإلا أن تكون معه قوة مادية تحميه . أما حرمة

العقيدة والحق والدعوة فلا وزن لها ولا ظل في تلك النفوس الفارغة الخاوية "))[٥٦] وفي الحقّ إنّ ما ذهب إليه الدكتور السبت وسيّد قطب صحيح – بشكل عام – لكنّهما قصرا القضيّة على العصبيّة القبليّة والتوحيد وأنّ قوم شعيب لا يفهمون ما يقول ، وهناك مسألة غاية في الأهميّة غابت عنهما – فيما يبدو – تتعلّق بالمصالح الاقتصادية ، فقد "صرّح" القرآن الكريم بهذا حينما قال : أو أنْ نفعل في أموالنا ما نشاء ، فطرح النبيّ عليهم بأنّهم يقطعون الطريق وبأنّهم يغشّون بالميزان والمكيال ، فمعنى هذا أنّه يريد أنْ يغيّر نظامهم الاقتصادي ، وهذا الأمر يضرّهم فهم غير مستعدّين أنْ يفرّطوا بما يأخذونهم بالباطل ؛ لذا تراهم يواجهون النبي مرّة باتهامه بالسحر وبالكذب ، ومرّة بالرّجم – وهي حالة بشعة من العقوبة – وفي هذا دلالة على أنّ قوم شعيب (ع) عندهم من المكر ومن الحيلة ما يستطيعون بهما أنْ يخطّطوا وأنْ يُنفذوا ما خطّطوا لأجله ، وليس ما ذهب إليه سيد قطب من نفوسهم خاوية فقط . ولمّا عرف شعيب (ع) وهو الحليم الرشيد – كما وصفوه هم – مكرهم ودهاءهم قال: ((وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ))[٥٧] فالصبر وليس غيره عند شعيب (ع) وعند الأنبياء جميعاً يواجهون به الطواغيت المستكبرين الذين يبارزون الله تعالى وأنبياءه (ع) وما قاله النبيّ شعيب (ع) : حتّى يحكم الله ، قولٌ في غاية التأثير فلو علم قومه وأقوام الأنبياء جميعاً خطورة هذا القول من نبيّ لتراجعوا مسرعين ؛ لكنّ الشيطان كان لهم بالمرصاد فاستحوذ عليهم وأنساهم ذكر الله العظيم. وهذه المرّة واجهوا النبيّ شعيب (ع) ومن معه من المؤمنين بـــالنفي، قال تعالى: ((قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا))[٥٨] والذي قال هذا : المستكبرون وهم الطبقة المتنفّذة في قومه. وأنت تعلم أنّ المعارضين السياسيين ورجال الدين يُنفَون اليوم من بلدانهم لمعارضتهم نظام الحكم ، والذي يقوم بنفيهم الحكومة طبعاً وهي الطبقة المتنفّذة القادرة على إنفاذ النفي . والنفي أشدّ مراحل العقوبة مرارة ، ولا سيّما إذا كان النبيّ يعيش بين ظهراني قومه ويحبّ بلده مثلما حصل مع رسول الله (ص) إذ اضطرّه قومه – على جهالة – مغادرة

مكّة وكان يحبّها حبّاً جمّاً ، ولو كانوا على ذكاء لأبقوه وأفادوا من بقائه بركةً ورحمةً ورزقاً حسناً . فأبقوا جهلة قومهم من الطواغيت التافهين الذين لمْ يأتوا عليهم بشيء فيه خير .

فردّ عليهم شعيب (ع) ردّاً عزّ نظيره في التاريخ ، قال : ((قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ)) [٥٩] فالنبي والذين اتبعوه يكرهون الخروج من قريتهم ، ولا ينبغي لهم أنْ يعودوا في ملّة الظالمين متوكّلين في هذا على الله تعالى الذي وسع كلّ شيء علماً ، وأوكل الأمر مرّة أُخرى إلى الله تعالى . وقال بيقين وثبات على العقيدة : ((قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ)) [٦٠] فهو (ع) ما زال مصراً على هداية قومه وما زال يخاطبهم برفق وما زال يذكّرهم بنعم الله تعالى عليه وما زال يريد الإصلاح الذي يمكن أنْ يحقّقه وليس الإصلاح اليقيني ؛ لأنّ هذا مرهون بقبول دعوة النبيّ من قومه . ثمّ قال ما توفيقي إلّا بالله فلا توفيق إلّا توفيقه تعالى متوكّلاً على الله راجعاً إليه .

فترى رسول الله شعيب (ع) يضع الأمور في نصابها الحقيقي فكلّ كلمة قالها في سياقها الصحيح فجاء توقيته في استعمال الكلمات بشكل معجز لا يقوى عليه إنسان غير مسدّد من الله تبارك وتعالى . فقد أرجع كلّ أمرٍ إلى ربّه وهذا منهج النبوّات الثابت . وبعد أنْ قال لهم هذا القول الرشيد الذي هيّأ في الأذهان إلى شيء أكثر خطورة ، فحين قال : عليه توكّلت وإليه أُنيب يعني به حدوث شيء رهيب يرجع فيه إلى الله . فهذا يقال قبل حدوث شيء جلل ، وقال أيضاً: ((رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ)) [٦١] وهذا يعضّد ما يهيّئ له النبيّ (ع) من أنّ الذي يحدق بقومه لرهيب – إنْ لم يستجيبوا لنبيّهم – وحين هدّدوه بالرجم لولا رهطه قال : ((قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ)) [٦٢] فحين يذكر أنّ الله تعالى أعزّ عليهم من رهطه وانّ الله

تعالى محيط بما يعملون ينبغي لهم أنْ يفكّروا ملياً بهذا فقد أعطاهم منّ هو أعزّ عليهم من رهطه الذين يهابونهم فعلاً . وكلمة محيط قد انتقاها رسول الله شعيب (ع) بدقّة وعناية ؛ لأنّ الإحاطة تشمل كلّ شيء يخصّهم . وبعد كلّ مقدّمات الدعوة التي استوفاها النبيّ شعيب (ع) من رفق ومن مخاطبتهم بـــ"قومي" وبعد تهيئة ما يخيفهم حقّاً صعّد الحوار تدريجياً ؛ فردّوا عليه بقولهم : ((وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ)) [٦٣] فقول الملأ الذين كفروا من قومه لقومهم : لئن اتبعتم شعيباً إنّكم إذاً لخاسرون ، يفيد بإفلاسهم حقّاً ، فكلمة خاسرين عامّة إذْ لمْ يبيّنوا ما نوع الخسران أمام ما قدّمه شعيب (ع) من دلائل دامغة وحجج واضحة

وبعد هذا الحوار بيّن شعيب (ع) وقومه ، واستنفاد النبيّ (ع) كلّ وسائل الدعوة الحكيمة الصادقة المبنيّة على بيّنة ملموسة لجأ إلى المواجهة الحتميّة وبيان غضب الله الجبّار من قومه بشكل مباشر لا مراء فيه ولا غموض ، قال تعالى : ((وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ)) [٦٤]. وأنت تلاحظ أنّ النبيّ (ع) قال لهم: اعملوا على مكانتكم بعد إصرارهم ، وتركهم على مكانتهم يعني أنْ لا قيمة لهم عنده بعد كلّ الدلائل ، ثمّ ذكر لهم العذاب الذي يأتي على من هو كاذب – وهم الكاذبون بطبيعة الحال – وأمرهم بترقّب ما سيحدث . وهو بهذا قد نصح قومه قبل أنْ ينذرهم بالعذاب لإلقاء الحجّة عليهم ، قال تعالى : ((يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ)) [٦٥] فعندما قال (ع) : فكيف آسى على قوم كافرين معناه أنّه قد ملّ من دعوتهم وتيقّن أنْ لا فائدة من نصحهم فهم قوم لا يقبلون النصح . فبعد أنْ استنفد النبيّ شعيب (ع) جاء أمر الله تعالى في شأن قوم شعيب ، قال تعالى : ((وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ)) [٦٦] وقد ذكر القرآن الكريم ألفاظاً مختلفة بشأن عذاب قوم شعيب (ع) ففي هذه الآية وردت اللفظة "الصيحة" من دون ما يعرف ما يراد بها ، وبما أنّ القرآن الكريم جاء على

أساليب العرب فهي في اللغة : ((الصِّياحُ الصوتُ وفي التهذيب صوتُ كل شيء إِذا اشتدّ صاحَ ... وصَيَّحَ صَوَّتَ بأَقصى طاقته يكون ذلك في الناس وغيرهم قال وصاحَ غُرابُ البَيْنِ وانْشَقَّتِ العَصا ... والصَّيْحَةُ العذابُ وأَصله من الأَوّل قال الله عز وجل فأَخَذَتْهم الصَّيْحةُ يعني به العذاب ويقال صِيحَ في آلِ فلان إِذا هَلَكُوا فأَخَذَتْهم الصَّيْحةُ أَي أَهلكتهم والصَّيحةُ الغارةُ إِذا فُوجِئَ الحيُّ بها)) (٦٧) وهي تدور حول الصوت العظيم وانشقاق الشيء الصلب (٦٨) والهلاك والعذاب والغارة . وفي الحقيقة كلّها متقاربة لما حلّ بقوم شعيب (ع) فأصبحوا جاثمين بمعنى ساقطين على رؤوسهم مثل الطير النافق . قال ابن منظور : ((وقوله تعالى : فأَصبَحوا في دِيارِهِمْ جاثِمين ؛ أَي أَجساداً مُلْقاةً في الأَرض ؛ وقال أَبو العباس : أَي أَصابهم البلاءُ فبَركوا فيها ، والجاثِمُ : البارِك على رِجْليه كما يَجْثِمُ الطيرُ ، أي أَصابهم العذابُ فماتوا جاثِمين أي بارِكين)) (٦٩). فاستعملت هذه اللفظة هنا استعمالاً دقيقاً فكان أنْ حلّ بهم العذاب بسرعة بدليل تفسير البغوي لهذه الحادثة ، إذْ قال : ((قيل : إنّ جبريل (ع) صاح فيهم صيحة فخرجت أرواحهم ، وقيل أتتهم صيحة من السماء فأهلكتهم)) (٧٠) وقد وردت لفظة "ديارهم" مرّتين في القرآن الكريم مع لفظة "الصيحة" ووردت لفظة "دارهم" مرّتين مع لفظة " الرجفة" ؛ لأنّ ((الصيحة هي أشمل وأهمّ من الرجفة لذا فإنها تُصيب عدداً أكبر وتبلغ أكثر من الرجفة والمعلوم أن الصوت يمتد أكثر من الرجفة ولهذا فهي تؤثر في ديار عديدة لذا جاء استخدام كلمة (ديارهم) مع الصيحة كما في الآية ٦٧ والآية ٩٤ في سورة هود (وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ) (وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ) ، أما الرجفة فيكون تأثيرها في مكانها فقط لذا جاء استخدام كلمة (دارهم) مع الرجفة كما في قوله في سورة الأعراف (فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ) آية ٧٨ و ٩١ (فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ) وكذلك في قوله تعالى (فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ) سورة العنكبوت آية ٣٧، ولم ترد في القرآن كلمة ديارهم إلا مع العذاب بالصيحة ولم ترد كلمة (دارهم) إلا مع العذاب بالرجفة))

[٧١] . وبهذا ترى أنْ لا فرق بين نبيّ وآخر إلّا بما يتعلّق ببيئة قوم النبيّ وبزمنهم وما وصلوا إليه من رقيّ في الحضارة وفي العمل ؛ فقد رأيت شعيباً يدعو قومه إلى الإيفاء بالوزن ؛ لأنّهم كانوا على ممرّ الطرق وكانوا تجّاراً ، وهكذا مع بقيّة الأنبياء والمرسلين ، فمنهجهم واحد وطريقتهم واحدة ؛ فلا عجب حين يقول القرآن : ((أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ)) ؛ لأنّ ثمود لاقوا من قبل مثل ما لاقت مدين ، قال تعالى : ((وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ)) [٧٢]

خامساً: ختام النبوّة:

وقد ختم الله تعالى نبوّته بمحمّد (ص) ، وكان خطابه للناس أجمعين وهو يمثّل صفوة المنهج الإلهي – مع كفاية خطاب الأنبياء أقوامهم – واوّل ما نزل الوحي على رسوله الأمين عن طريق جبريل (ع) ليلة الإثنين قبل طلوع الفجر ٢١ من شهر رمضان الموافق العاشر من سنة ٦١٠ للميلاد فقال له : إقرأ ، فقال رسول الله (ص) : ما أنا بقارئ ، قال ابن كثير: ((فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ : اقْرَأْ . فَقَالَ : مَا أَنَا بِقَارِئٍ . قَالَ : فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ ثُمَّ أَرْسَلَنِي . فَقَالَ : اقْرَأْ. فَقُلْتُ : مَا أَنَا بِقَارِئٍ . فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ ثُمَّ أَرْسَلَنِي . فَقَالَ : اقْرَأْ . فَقُلْتُ : مَا أَنَا بِقَارِئٍ ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ . ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ : " اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ.")) [٧٣] . وقال القرطبي في تفسيرها: ((ومعنى اقرأ باسم ربك أي اقرأ ما أنزل إليك من القرآن مفتتحاً باسم ربك، وهو أن تذكر التسمية في ابتداء كل سورة)) [٧٤]. والذي ذهب إليه القرطبي وغيره من المفسّرين تفسيرٌ عام صحيح ، ولا نعدم شمول الكون بالقراءة بمعنى التدبّر والتأمّل في ملكوت السماوات والأرض والله تعالى أعلم ، والدليل على هذا لم ترد قرائن بعد قوله تعالى: اقرأ تدلّ على القراءة بالمعنى المفهوم فذكر باسم ربك الذي خلق وتعني انّه خلق كل شيء ثم قال: خلق الإنسان من علق وبعدها ذكر القلم وهو من أدوات القراءة والكتابة. وقد خصّ الله

تعالى لنبيّه الكريم سبيله للدعوى ، قال تعالى: ((قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)) (٧٥) وخطابه (ص) لا يختلف عن خطاب الأنبياء ، وقد أشرك معه الذين اتبعوه . وقال الطبري: (("وما أنا من المشركين " ، يقول : وأنا بريءٌ من أهل الشرك به ، لست منهم ولا هم منّي)) (٧٦) . وتكرّرت دعوة النبي (ص) في نبذ الشرك واللجوء إلى العبوديّة المطلقة، قال تعالى: ((قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)) (٧٧) على غرار الأنبياء السابقين . وتأتي الآية الأخرى لتعضّد هذه الآية ، وتشير إلى تفصيل القرآن الكريم وتشير أيضاً إلى انّ القرآن الكريم منزّل من الله وقد ذكرته كتب السماء ، قال تعالى : ((أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ۚ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ)) (٧٨) . ومن هنا يتبيّن أنْ لا حقّ للممترين ، ولا حقّ لأصحاب الكتاب من يهود أو نصارى أنْ يطعنوا بنبوّة محمّد (ص) ، فهم يعلمون أنّه نبيّ وأنّ قرآنه منزّل من السماء ، ودعوته استمرارٌ لما ورد في كتبهم ودعوته استكمال دعوة انبيائهم . وإذا ما ذكروا بأنّ النبيّ (ص) قد سُبق بنبيّهم وهو موسى (ع) وكتابه التوراة ، أو بعيسى (ع) فلا حاجة إلى نبيّ غيره ؛ فحجّتهم داحضة ؛ لأنّ موسى (ع) قد بشّر بنبوّة محمّد وهو مكتوب عندهم في التوراة ، قال تعالى : ((الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)) (٧٩) . ومعنى هذا أنّهم يريدون التخرّص من اتباع النبيّ الكريم (ص) ولا يريدون اتباع الحقّ، وهم يعلمون أنّ موسى (ع) وعيسى (ع) قد سُبقا بأنبياء قبلهم كشعيب وصالح ولوط وهود وإبراهيم ونوح (ع). فهل أنكروا نبوّة هذين النبيّين الكريمين؟ واكبر دليل على نبوّة محمّد (ص) فيما يخصّ الديانات السابقة، إيمانه بالأنبياء السابقين وتصديقه برسالاتهم، قال تعالى: ((قُولُوا آمَنَّا

بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيْسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)) (٨٠) .

فعند رفع الوحي عن الأرض وانقطاع جبريل (ع) بعد رحيل رسول عنها لا تصحّ عبادة غير الله ولا يحقّ للبشريّة اتخاذ أنْ تعبد إلهاً آخر غير الله سبحانه وتعالى ربّا للعالمين ولا يقبل دين غير الإسلام ، قال تعالى : ((وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ)) (٨١).

الخاتمة:

ويمكن تلخيص خاتمة البحث بالآتي :

- كان سبيل الأنبياء مع أقوامهم سبيلاً واحداً ، فهم يدعون إلى التوحيد برفق ولين . على اختلاف أزمانهم ، واختلاف حضارة أقوامهم وعلومهم .
- اختصّ كلّ نبيّ بما مارسه قومه من انحراف عن طريق الحقّ . بأنْ دعاهم إلى نبذه . وجاهدهم بحجج تدحض ما كانوا يمارسونه ويعتقدونه صحيحاً .
- هناك اختلاف بين الأنبياء فيما بينهم ، فمنهم من أولي العزم من الرسل ومنهم منْ لمْ يكنْ كذلك ؛ لكنّ المنهج الإلهي يظلّ واحداً . على اختلاف مستويات أقوامهم وطرق تفكيرهم .
- هناك من الأنبياء مَنْ بُعث برسالة سماويّة وهناك من يفتقر إليها . إلّا أنّه لا يصحّ التفريق بين الرسل ، فكلّهم مبعوثون من الله تعالى لهداية اقوامهم بالسبل المتاحة لكلّ نبيّ ، وقد نجح الأنبياء في الدعوة إلى الله وتبليغ رسالاته تعالى .
- يستنفد كلّ نبيّ الطرق المتبعة من رفق ولين وحجاج في دعاء قومه. ولمْ نجدْ نبيّاً أصابه التعب أو الملل في الدعوة إلى طريق الحقّ . ويكفي أنْ نعرف أنّ نوحاً ظلّ يدعو إلى التوحيد وصلاح قومه مدّة تسعمائة وخمسين عاماً، من دون انْ يتطرّق إليه الوهن أو الضعف .

–وحين لمْ ينفع النصح ولا الإقناع ، يلجأ النبيّ إلى ربّه ويوكل الأمر إليه . مقدّماً بين يديّ الله تبارك وتعالى سبب دعائه والجرم الذي ارتكبه قومه .

- لمْ يطلب الأنبياء جميعاً أجراً ثمناً لرسالاتهم ؛ الأمر الذي يمنحهم مصداقيّة في ما يدعون إليه .

- اختلف العذاب الذي أنزله الله تعالى في أقوام الأنبياء ، فمنهم من أغرق بالطوفان ومنهم من أرسل عليه حاصباً ومنهم من أخذته الرجفة ومنهم من أغرق في البحر ...ألخ .

- إنّ أوّل ما يواجه الأنبياء المتنفّذين من أقوامهم ؛ لأنّهم لا يريدون فقدان نفوذهم . وهؤلاء هم السبب في بلاء أقوامهم ، يتبعونهم فيندمون على فعلو بعد فوات الأوان طبعاً .

- إنّ الأمم متشابهة في نظرتها إلى الأنبياء ، فهي تتبع طريقة تكذيب النبوّات واتهامهم بالجنون أو بالكهانة او بالسحر أو بتغيير "طريقتهم المثلى" وإيذائهم بشتّى الوسائل والسبل والعمل على إحباط دعواتهم ؛ لذلك تجد العذاب الذي يقع عليهم متشابهاً مثلما حصل مع ثمود وأصحاب الأيكة .

- يدعو الأنبياء أقوامهم ويحذّرونهم عذاب الله ويذكّرونهم بما حلّ بالأمم السابقة ولا سيّما بالأمم قريبة العهد منهم ؛ ليكون ذلك مدعاة لهم لأخذ العبرة وتجنّب عصيان الله تبارك وتعالى .

- يقدّم الأنبياء كلّ ما يستطيعون من تذكير أقوامهم بنعم الله عليهم من رزق وامان وتكثير في الذريّة ، وهذه أمور ملموسة لا يستطيعون نكرانها ؛ الأمر الذي يدلّ على نجاح الأنبياء وصدقهم بمقابل "عنجهيّة" أقوامهم واتخاذ السفاهة طريقاً لمواجهة الأنبياء ويصل الأمر إلى السخرية وهي أعلى مراتب ابتعاد الإنسان عن طريق الحقّ . مثلما حصل لنوح (ع) وسخريّة قومه منه عندما صنع السفينة ، وهو يريد إنقاذ المؤمنين برسالته وإنقاذهم .

الهوامش:

(١) ظ : قصّة نوح (ع) في : تحفة النبلاء في قصص الأنبياء : ١٦٩ . وظ : قصص الأنبياء للشعراوي . وظ : ملتقى أهل الحديث : ٦ / ٢٩٩ .

(٢) نوح : ٢ – ٤ .
(٣) جامع البيان : ٢٣ / ٦٣٠ .
(٤) نوح : ١ .
(٥) نوح : ٥ – ٧ .
(٦) نوح : ٨ – ٢٠ .
(٧) نوح : ٢١ – ٢٨ .
(٨) تفسير ابن كثير : ٨ / ٢٤٨ . ونقل عن ابن جرير ، ظ : جامع البيان : ٢٣ / ١٣٩ .
(٩) هود : ٤٣ .
(١٠) تفسير ابن كثير : ٨ / ٢٥٠ .
(١١) سورة يس : ٢٠ – ٢١ .
(١٢) النساء : ٤٨ .
(١٣) ظ : قصّة إبراهيم الخليل (ع) في : تحفة النبلاء في قصص الأنبياء : ١٩٦ . وظ : قصص الأنبياء للشعراوي . وظ : ملتقى اهل الحديث : ٩٣ / ١٦٣ .
(١٤) البقرة : ٢٥٨ .
(١٥) جامع البيان في تأويل القرآن : ٥ / ٤٣٢ – ٤٣٣ . والأية في سورة النحل : ٢٦ .
(١٦) قال المتنبّي :

ومن لمْ يمت بالسيف مات بغيره تعدّدت الأسباب والموت واحدُ

(١٧) الأنعام : ٧٤ .
(١٨) جامع البيان في تأويل القرآن : ١١ / ٤٦٩ .
(١٩) التوبة : ١١٤ .
(٢٠) الأنبياء : ٥٢ – ٧٠ .
(٢١) تفسير ابن كثير : ٥ / ٣٠٧ .
(٢٢) البقرة : ١٣٣ .
(٢٣) إبراهيم : ٣٥ – ٣٦ .

(٢٤) البقرة : ١٣٢ .

(٢٥) ظ : قصّة موسى واخيه هارون عليهما السلام في : تحفة النبلاء في قصص الأنبياء : ٢٩٧ . وظ : قصص الأنبياء للشعراوي . وظ : ملتقى أهل الحديث : ٤٩ / ٤٧٠ .

(٢٦) الأعلى : ١٨ – ١٩ .

(٢٧) النجم : ٣٦ – ٣٧ . وظ : تفسير القرآن العظيم : ٩ / ٤٠ .

(٢٨) تفسير القرآن العظيم : ٧ / ٤٣١ .

(٢٩) سورة طه : ٢٤ .

(٣٠) الأعراف : ١٠٤ .

(٣١) ظ : الأعراف : ١٠٥ – ١١٩ .

(٣٢) الأعراف : ١٢٠ – ١٢٢ .

(٣٣) الأعراف : ١٢٧ .

(٣٤) الأعراف : ١٣٧ .

(٣٥) الأعراف : ١٣٨ .

(٣٦) الأعراف : ١٤٨ .

(٣٧) الأعراف : ١٤٩ .

(٣٨) المائدة : ٢ .

(٣٩) الجامع لأحكام القرآن : ٦ / ٤٦ – ٤٧ .

(٤٠) ظ : قصّة النبي شعيب (ع) في : تحفة النبلاء في قصص الأنبياء : ٢٤٥ . وظ : قصص الأنبياء للشعراوي . وظ : ملتقى أهل الحديث : ٢٤ / ١٢٩ .

(٤١) الأعراف : ٨٥ .

(٤٢) هود : ٨٩ . وظ : تأملات حول قصة نبي الله شعيب (ع) – تأملات في قصص القرآن الكريم : أ . د . عبد الرحمن عبد الماحد الشجاع ، مقال على شبكة المعلومات الدوليّة .

(٤٣) الحجر : ٧٨ .

(٤٤) تأملات حول قصة نبي الله شعيب (ع) – تأملات في قصص القرآن الكريم : أ . د . عبد الرحمن عبد الماحد الشجاع ، مقال على شبكة المعلومات الدوليّة .

(٤٥) الحجر : ٧٨ .

(٤٦) هود : ٨٤ .

(٤٧) جامع البيان : ١٢ / ١٦٧ .

(٤٨) الأعراف : ٨٦ .

(٤٩) جامع البيان : ١٢ / ١٥٨ .

(٥٠) ظ : موقع أ.د. خالد بن عثمان السبت ، تفسير الآية : ٨٦ من سورة الأعراف .

(٥١) الشعراء : ١٨٥ – ١٨٦ .

(٥٢) هود : ٨٧ .

(٥٣) هود ٨٧ .

(٥٤) موقع أ.د. خالد بن عثمان السبت ، تفسير الآية : ٨٧ من سورة هود .

(٥٥) هود : ٩١ .

(٥٦) موقع أ.د. خالد بن عثمان السبت ، تفسير الآية : ٩١ من سورة هود . ونقل من : في ظلال القرآن : ٤ / ١٩٢٢

(٥٧) الأعراف : ٨٧ .

(٥٨) الأعراف : ٨٨ .

(٥٩) الأعراف : ٨٨ – ٨٩ .

(٦٠) هود : ٨٨ .

(٦١) الأعراف : ٨٩ .

(٦٢) هود : ٩٢ .

(٦٣) الأعراف : ٩٠ .

(٦٤) هود : ٩٣ .

(٦٥) الأعراف : ٩٣ .

(٦٦) هود : ٩٤ – ٩٥ .

(٦٧) لسان العرب : مادة : صيح .

(٦٨) ورد في اللسان وغيره من المعجمات التي أشارت إلى انشقاق الأشياء الصلبة ، وفيها دلالة تقترب من دلالة سياق الآية الكريمة .

(٦٩) لسان العرب : مادة : جثم .

(٧٠) معالم التنزيل : ٢ / ٤٦٣ .

(٧١) الفرق بين (دارهم) و(ديارهم) في القرآن الكريم ، مقال على شبكة المعلومات الدوليّة .

(٧٢) هود : ٦٧ – ٦٨ .

(٧٣) كتاب السيرة النبويّة لابن كثير : ١ / ٨٥ . والآيات في سورة العلق : ١ – ٥ . وظ : كتب السيرة ، كسيرة ابن إسحاق وابن هشام وغير هذين الكتابين ، إذْ أفاضت كتب التاريخ والسيرة بسيرة المصطفى المختار (ص) .

(٧٤) الجامع لأحكام القرآن : ٢٠ / ١١٨ – ١١٩ .

(٧٥) يوسف : ١٠٨ .

(٧٦) جامع البيان في تاويل القرآن : ١٦ / ٢٩١ .

(٧٧) الأنعام : ١٤ .

(٧٨) الأنعام : ١١٤ .

(٧٩) الأعراف : ١٥٧ . وقال الطبري لا يوجد نبي وُصف بهذه الصفة "الأمي" غير النبي الكريم (ص) ، جامع البيان في تأويل القرآن : ١ / ٥٦١ .

(٨٠) البقرة : ١٣٦ .

(٨١) آل عمران : ٨٥ .

المصادر والمراجع:

– القرآن الكريم .

١. تحفة النبلاء من قصص الأنبياء ، الحافظ ابن كثير ، ضبط نصّه وعلّق عليه غنيم بن عباس بن غنيم ، تقديم د. السيد بن حسين العفاني ، مكتبة الصحابة ، القاهرة ، ط ١ ١٩٩٨ م .

٢. تفسير القرآن العظيم (ابن كثير) ، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي تحقيق محمد حسين شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، منشورات محمد علي بيضون ، بيروت ، الطبعة ١ ١٤١٩ هـ .
٣. الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي ، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي القرطبي ، تحقيق ، أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، الطبعة ٢ ، ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤ م .
٤. جامع البيان في تأويل القرآن المؤلف: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، مؤسسة الرسالة الطبعة ١ ، ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠ م .
٥. سيرة ابن إسحاق (كتاب السير والمغازي) ، محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي ، المدني ، تحقيق سهيل زكار ، دار الفكر ، بيروت ، الطبعة ١ ، ١٣٩٨هـ /١٩٧٨ .
٦. السيرة النبوية ، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي ، تحقيق مصطفى عبد الواحد الناشر ، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت – لبنان ، ١٣٩٥ هـ – ١٩٧٦ م .
٧. السيرة النبوية لابن هشام المؤلف ، أبو محمّد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري ، تحقيق ، مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي ، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر الطبعة ٢ ، ١٣٧٥هـ – ١٩٥٥ م .
٨. ديوان أبي الطيّب المتنبّي ، بشرح العكبري ، ضبط نصوصه واعدّ فهارسه وقدّم له د . عمر فاروق الطبّاع ، شركة الأرقم ، بيروت – لبنان ، ط١ ١٩٩٧ م .
٩. قصص الأنبياء ومعها سيرة الرسول (ص) ، محمد متولي الشعراوي ، اعتنى به إبراهيم عبد الستار علي و محمد صالح ، دار القدس ، ط ١ ٢٠٠٦ م .
١٠. لسان العرب ، أبو الفضل ، جمال الدين ابن منظور الأنصاري ، دار صادر – بيروت الطبعة ٣ ، ١٤١٤ هـ .
١١. معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي ، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي ، تحقيق عبد الرزاق المهدي الناشر ، دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة ١ ، ١٤٢٠ هـ .
١٢. ملتقى أهل الحديث ، موقع على المكتبة الشاملة يحتوي على خزانة كتب كثيرة .
– موقع أ.د. خالد بن عثمان السبت